الباب السادس

فى انتصار الحق وظهوره

الفصل الأول :

* فى انتصار الحق بالحجة والبيان .

الفصل الثانى :

* فى مكثه وثباته وبقائه .

الفصل الثالث :

* فى انتصاره فى النفوس وإيثاره .

الفصل الرابع :

* فيما يكون للباطل من إملاء واستدراج .

الفصل الخامس :

* فى العاقبة والمآل .

الفصل الأول

★ في انتصار الحق بالحجة والبيان.

الآيات

١ - ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(الاعراف: ١١٨)

٢ - ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾

(الأنفال: ٧، ٨)

٣ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣ ﴾

(التوبة: ٣٣)

٤ - ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

(التوبة: ٤٨)

٥ - ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(يونس: ٣٦)

٦ - ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

(يونس: ٨٢)

٧ - ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الاسراء: ٨١)

٨ - ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٨)

٩ - ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

(الانبياء: ٢٤)

١٠ - ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

(الفرقان: ٣٣)

١١ - ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

(سبأ: ٤٨، ٤٩)

١٢ - ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾

(فصلت: ٥٣)

١٣ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى

ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

(الفتح : ٢٨)

١٤ - ﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

(النجم : ٢٨)

١٥ - ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(الصف : ٩)

الحق من ربك . وبه أرسل الرسل وأنزل الكتب وخلق السموات والأرض وبه يجىء الموت ويبعث الخلق . ومن أجله يكون الحساب والجزاء ويوفى الناس دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . وبه ومن أجله يساق فريق إلى الجنة وهى حق ويساق فريق إلى النار وهى حق :

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(الزمر : ٧٥)

فلا شىء فى البداية ولا شىء فى المصير إلا الحق .

وقد يغفل كثير من الناس عن هذه الحقيقة وهم فى متعة الحياة وزينتها فيذكرون سرابها وينسون حقيقتها ويسوقهم ظمؤهم ويغريهم طمعهم بمتابعة السراب وهم يحسبونه ماء وما هو بماء . حتى اذا جاؤوه لم يجدوه شيئا ووجدوا الحق الذى نسوه واستقبلوا الحساب الذى شغلهم عنه السراب .

ولكن هل خفى الحق عليهم وغاب عنهم حتى وجدوه فى حساب وجزاء وتلبسوا به فى موت ونشور وجنة أو نار ؟ هل خفيت دلائله أو التبست آياته ؟ هل كان بعيدا عنهم حين جحدوه أو خوطب به غيرهم حين أنكروه ؟ إن ذلك لم يكن بل كانت فيهم آياته وأشرقت عليهم شمسه وبيناته وما من شأن من شئونهم الا وللحق فيه دليل وفى أنفسهم وفى الآفاق . للحق آيات وآيات . فما غاب الحق وما خفى وما انقطعت منافعه ، ولا جفت روافده ، أو أطفىء نوره ، أو جُهِلَ رُسُلُه . وما سكتت عبره وعظاته . أو سكنت زواجره وآياته . بل ترى آيات الحق فى كل زمان ومكان . تراها فى فلق صبح ، وفى سكون ليل . وفى نبتة زرع ، وفى عطاء ضرع . تراها فى تسخير ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وفى سجود نجم وشجر ، وفى نعم بر وبحر . وفى نسمة هواء وإنزال ماء . تراها فى إلهام نحل وتسخير طير . تراها فى حدائق غناء ، وفى نجوم السماء . وفى السحاب المسخر بين الأرض والسماء . تراها فى شئون الخلق . فى نشأة طفل ومشية كهل . فى اختلاف ألسنة وألوان وأرزاق وآجال . تراها فى قصر غنى وكوخ فقير . تراها فى حياة وموت وإقبال جيل بعد جيل . ورحيل بعد رحيل . فى كل شىء للحق اية . وله فى كل أمر بينة وغاية . فما غابت دلائله ولا خفيت آياته ومعجزاته . ولا انفك عن الناس فى فطرتهم ولا كانوا بغيره فى نشأتهم ومعاشهم وحياتهم ومماتهم . بل به كانوا ومن أجله خلقوا وبنوره اهتدوا . وبكلمة الحق قدموا إلى دنياهم ورحلوا إلى اخراهم ورجعوا إلى ربهم . وبكلمة الحق بعثوا وحشروا وبها امتحنوا وعليها حوسبوا وجوزوا . فمن عذب منهم عذب من أجل الإعراض عن الحق ومن كرم كرم من أجل التمسك بالحق . ولا عذر بعد بيان لجاحد حق ، ولا حجة بعد بلاغ لباطل أو مضل ولا بقاء لباطل ولا ضياع لحق .

ومع آيات القرآن فى ظهور الحق وبيانه . وفى انتصار حجته وبرهانه وهو يرينا ما كان من قبل وما هو كائن وما سيكون لتبقى الدعوة إلى الحق لا ينفصل فيها ماض عن حاضر ، ولا حاضر عن مستقبل . ولا تغيب عبرة الأمس عن اليوم . ولا يعفى عمل اليوم من حساب الغد ، بل يمتزج الحديث عن ذلك كله فى بيان يُتدبر وحديث يهدى للتى هى أقوم : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (ص : ٢٩)

فمن ظهور الحق فى ماض جاء قوله تعالى: ﴿**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون**﴾ الآية فى سورة الاعراف.

ومعنى قوله « وقع » أى ظهر ونزل ووجد. والمراد «بِالْحَقِّ» ما جاء به موسى عليه السلام من عند ربه. «وَبَطَل» ما كان يسعى إليه فرعون وشيعته ولم يكن ما ألقى به موسى إبطالا لما جاءت به السحرة فحسب بل كان ابطالا لباطل فرعون كله وإزهاقا لما يزعمه ويدعيه. وكانت دلالته أبعد مدى من إبطال ما صنع السحرة. وكان إيمان السحرة برهانا على صدق هذه الدلالة وسعة مداها وأنها أبطلت زعم فرعون وادعاءه الربوبية ولم يستطع السحرة أمام ظهور الحق وبيانه إلا أن يخروا ساجدين وأن يعلنوا إيمانهم برب العالمين ـ رب موسى وهارون. وهم الذين أحضرهم فرعون لإبطال ما جاء به موسى وأغراهم بالأجر والقرب منه. فإذا بمن جاء لنصرته يعلن خذلانه وهو يعلن إيمانه برب موسى وهارون. وإذا بالوعد بالأجر ينقلب إلى وعيد بالقتل والتمزيق والصلب.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(الاعراف: ١٢٣، ١٢٤)

ان بيان الحق قد كشف زور الباطل وبهتانه وأزهق وعده ووعيده. فلم يأبه السحرة بوعيد فرعون وقد أيقنوا أن وعيده باطل كوعده وأن الركون إليه خسران وبطلان:

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

(طه: ٧٢، ٧٣)

ومن قبل أن يفضح أمر فرعون فى يوم حُشِرَ فيه الناس وجمعوا كان بيان الحق أمامه فى حوار وقول لين يدعو إلى التذكر والخشية. وفى آية بينة تكفى فى العظة والعبرة. ولكنه أصر على عناده وكفره وتولى فجمع كيده ثم أتى. من قبل خوطب بالآيات البينات فلم يذعن لحق ولم ينخلع من ثوب زور وباطل أمر الله موسى وهارون أن يأتياه فيبلغاه رسالة ربه وأن يحسنا القول إليه وأن يبصراه بالعاقبة والمصير. وما ينتهى إليه طغيانه من هلاك وسوء مصير.

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾

(طه: ٤٣-٤٨)

وسأل فرعون وأجيب وكان الجواب بالكلمة المبصرة الهادية ذات الحجة والبرهان. فماذا كانت النتيجة مع ظهور الحق وبيانه ؟

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟

وَارْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا
خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(طه: ٤٩ ـ ٥٥)

ماذا كانت النتيجة مع البيان الكامل والآيات التى رآها ؟ كان ما ذكر الله عز وجل:

﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾

(طه: ٥٦)

اى والله ـ كذب وأبى ـ وتكشف لنا سورة الشعراء ما كان منه وهو يخاطب بالقول اللين والكلمة الهادية المبصرة. ويجاب عما سأل بالقول السديد والحجة التى لا إبهام فيها ولا غموض.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾
قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ
أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ
ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾

(الشعراء: ٢٢ ـ ٢٩)

ومع ما كان من فرعون من سخرية وسباب واستخفاف وتهديد ووعيد وهو يخاطب بالكلمة ويُدعى بالحجة. نرى موسى عليه السلام يستمر فى تذكرته وإفاقته من سكرته وغفلته بآية حسية بعد مخاطبته بآيات وآيات توقظ عقله وتلين قلبه. قال له موسى بعد تهديده ووعيده بادخاله فى المسجونين وقوله ﴿**لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين**﴾. قال له موسى:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

(الشعراء: ٣٠ ـ ٣٣)

فهل أفادته بينة الحق وقد رآها وآية الصدق وقد أبصرها ؟

لقد رأيناه يلتفت إلى من استخفهم فأطاعوه . رأيناه يتوجه بالحديث إلى الملأ من قومه استخفافا وإنكارا وتماديا فى العناد والجحود :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ
أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

(الشعراء: ٣٤، ٣٥)

فماذا تأمرون؟ !! وهل تأمر بطانة السوء أو تشير إلا بما يرضى فرعونها وهل ترى إلا ما يراه أو تشير إلا بما أشار إليه أو ادعاه .

يا ويل كل فاجر من بطانته ، وكل طاغية من حاشيته . تشير عليه بأن يجمع السحرة وقد فعل وأن يحشر الناس ليشهدوا وقد فُضِح . والبطانة تغريه بعد وقوع الحق وظهوره وايمان السحرة واستعلائهم على وعده ووعيده ـ تغريه بمزيد من الطغيان وتدفعه إلى عدوان بعد عدوان :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾

(الاعراف: ١٢٧)

أبعد ظهور الحق وبيانه ورؤية آياته وبيناته يكون هذا العناد والاستبداد وتغرى المنافع الزائلة البطانة الفاسدة بالحث على التمادى فى الطغيان وارضاء نزوات الطاغية المستبد إلى هذا الحد.

وتقول لفرعون وهى تعرف فساده وطغيانه **﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض﴾**. إن هذه البطانة وهذا الملأ يستحق أن يولى عليه فرعون:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(الانعام: ١٢٩)

فرعون يخاطب من حوله بما خُوطِب به وَسُوِّلَ له وتكلم به الملأ من قومه ألم يقولوا له: **﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك﴾**؟ وهم بذلك يسولون له أن يقتل ويبطش وأن يستبد ويطغى. ها هو يقول لهم **﴿ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾**؟

ألا تستحق مثل هذه البطانة أن تهلك معه وأن تؤخذ به وأن يؤخذ بها وأن تكون معه فى عذابه كما كانت معه فى كيده. ألا تستحق هذه البطانة التى ترى الحق فتنكره وتعرفه فتغرى به وتكيد لأهله أن يكاد لها وأن يبطش بها.. هذا موقفها عند مجىء الحق:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

(غافر: ٢٥)

وهذا جزاؤها فى العاقبة والمصير:

﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(غافر: ٤٥، ٤٦)

احراق بعد اغراق :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت : ٤٠)

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾

(الذاريات : ٣٨ ـ ٤٠)

ذهب فرعون ومن معه وبقى الحق يخاطب الناس به ، وبالعبرة فى مخالفته وتكذيبه : **﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾** .

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾

(النازعات : ١٥ ـ ٢٦)

نعم : بقى الحق ظاهرا بحجته ظافرا بنصرته عزيزا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . بقى الحق فى بيان يتلى وآيات تُرى وتُشهد . بقى الحق فى ثباته وأصالته ونفعه وحسن عاقبته . وذهب كل باطل زعم أنه يدحضه أو يخفيه حين يدمِّر أهله أو يقتل الذين يأمرون به ويدعون إليه . بقى الحق حجة لا تغلب وسلطانا لا يقهر وبرهانا لا يغيب . وذهب كل فرعون كفر به أو صدَّ عنه . وهلك كل طاغية جحده أو تنكر له وأخذ كل ظالم كره بره وحارب عدله واتبع سبيلا غير صراطه المستقيم .

﴿إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ . . . **﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾** .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة : ٣٣)

هو الذى أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم «بالهدى» . وهو القرآن . هدى للناس وهدى للمتقين . «يهدى للتى هى أقوم» . «ودين الحق» هو الإسلام . وخصه بالذكر مع أنه داخل فى الهدى لبيان شرفه وعظم مكانته . «ليظهره على الدين كله» . قيل إن الهاء فى قوله «ليظهره» عائدة على الرسول صلى الله عليه وسلم أى ليعلمه شرائع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شىء منها . وقد روى ذلك عن ابن عباس . وقال غيره من المفسرين إنها راجعة إلى الدين الحق والمعنى ليظهر دين الإسلام على الأديان كلها وهو ألا يعبد الله إلا به .

قال أبو هريرة والضحاك وذلك عند نزول عيسى عليه الصلاة والسلام فلا يبقى أهل دين إلا دخلوا فى الإسلام . ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابى هريرة رضى الله عنه فى حديث نزول عيسى عليه السلام قال النبى صلى الله عليه وسلم وتهلك فى زمانه الملل كلها الا الإسلام[1] .

وقد أجمل الماوردى فى تفسيره ما قيل فى قوله ﴿**ليظهره على الدين كله**﴾ . **فقال : فيه ستة تأويلات** .

أحدها : يعنى عند نزول عيسى عليه السلام فإنه لا يعبد الله تعالى إلا بالإسلام : قاله أبو هريرة .

والثانى : معناه أن يعلمه شرائع الدين كله ويطلعه عليه ، قاله ابن عباس .

والثالث : ليظهر دلائله وحججه ، وقد فعل الله تعالى ذلك . وهذا قول كثير من العلماء .

والرابع : ليظهره برغم المشركين من أهله .

(١) الفتوحات الالهية : تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل . المتوفى (١٢٠٤هـ) .

والخامس: انه وارد على سبب، وهو أنه كان لقريش رحلتان، رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن والعراق، فلما أسلموا انقطعت عنهم الرحلتان للمباينة فى الدين فذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى عليه ﴿ليظهره على الدين كله﴾ يعنى فى بلاد الرحلتين وقد أظهره الله تعالى فيهما.

والسادس: أن الظهور الاستعلاء، ودين الإسلام أعلى الأديان كلها وأكثرها أهلا، فقد نصره الله بالبر والفاجر والمسلم والكافر. فروى الربيع عن أنس عن الحسن أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن الله يؤيد دينه بأقوام ما لهم فى الاخرة من خلاق[1] ١٠ هـ.

وإظهاره على سائر الأديان وعلى الذين لا يدينون دين الحق كائن وسيكون.
ولا خلاف فى اظهار دلائله وحججه وانتصار بيانه وبرهانه فى جميع الأحوال.

فكم من ناس دعاهم إلى اتباعه سماع آية من آياته وبينة من بيناته فتحولوا من عداوته إلى مناصرته ومن الصد عنه إلى الدعوة إليه والجهاد فى سبيله.

وهذا الانتصار فى الحجة والبرهان واقع من بداية أمره والناس يُصدون عنه ويعذبون فلا يزيدهم ذلك الا تمسكا به وثباتا عليه. سل بلالا والمستضعفين. سل آل ياسر ومن قتل منهم ماذا صنع بيان القرآن وهدايته فيهم. بل سل عمر بن الخطاب وهو من هو فى جاهليته وإسلامه ما الذى حوله من حال الى حال. إنه البيان الحق سمعه فاقشعر جلده ولان قلبه وسأل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ليتبع وينصر وقد كان من قبل يسأل عنه ليسىء ويخذل. إنه البيان فى حجته وبرهانه وحلاوته وغلبته وعزته وسمو مقاصده وهدايته. ألم تقصد ديار الإسلام فانتصر القرآن ـ وهو الحق ـ عندما عجزت السيوف وتحول من قَصَدَ إبادته وتدمير أهله إلى نصرته والدعوة إليه والدفاع عنه؟ ألم يقع ذلك للتتار ويقع فى كل زمان.

وانك لترى مع ضعف أهله قوة انتشاره. ومع ضراوة الصد عنه ترى امتداد نوره وعزة

---

(١) ذكر البخارى فى «كتاب الجهاد» باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر».
واورد الحديث رقم (٣٠٦٢) عن ابى هريرة وفيه «انه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر».

بيانه . فلا يضعف بضعف أهله ولا يخذل بخذلانهم . بل يصدع بالحق فى وجه مكذبيه ومخالفيه ويخاطبهم خطاب عزيز واثق ويكلمهم كلام كريم مجيد منتصر ويحكم بينهم بالحق ويقوم بالعدل والقسط دون نظر لمؤيديه أو مخالفيه :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت : ٤١ ، ٤٢)

ولأن الحق من الله وحده . فان بيانه وبرهانه يحق فى واقع .

فيرى واقعا ما يَعِدُ به وما يخبر عنه . ويظهر به ما تخفيه الصدور وتوسوس به النفوس . وتنكشف أساليب المكر والخداع والاجتهاد فى الحيل والمكايد فيُفضح به منافق ويؤخذ ظالم كافر ويبشر به مؤمن صالح . فالبيان الحق من الله الحق لا يكون مجردا عن حياة الناس أو بعيدا عن شئونهم بل يرى صدقه فيهم ودلالته فى أحوالهم وحجته وبرهانه فى القضاء القاطع والأمر النافذ .

فحديث القرآن حديث صدق وحق ـ له رفعته وسموه فى التعبير والأداء وحقيقته فى الواقع والقضاء لأنه صادر من الخالق الذى أحاط بكل شىء علما وهو على كل شىء قدير . وليس ككلام البشر قد ينفصل الأمر فيه عن النفاذ ويختلف البيان عن المبين . وقد يكون إرضاءً للفكر وتَخْدِيراً للنفس وشَغْلاً لها عن حقيقتها والنظر فى غدها وغايتها .

فأنت تقرأ فى القرآن الكريم ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾ .

وترى تحقيق الوعد فى لقاء بدر بين فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة . وترى نصرا يحق به الإسلام ويظهر ويبطل به الكفر ويزهق فى لقاء لا تعادل فيه بين الفئتين فى عَدَدٍ ولا عُدَد . لقاء قضى الله أن يتم وأن تدفع كل فئة إليه ولو انتفت الأسباب الداعية إليه عند الفريقين : ﴿**ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا**

ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم﴾ . (الأنفال: ٤٢).

فالسبب التى دعا إلى الخروج فى أول الأمر عند المؤمنين التعرض للعير التى فيها أبوسفيان وهى عائدة من الشام. والسبب الذي دعا إلى خروج المشركين هو الاستجابة لنداء أبى سفيان أن تخرج قريش بجمعها وقوتها لحماية تجارتها.

والسبب الداعى للخروج عند الفئتين قد انتفى وسلمت العير وأخبرت قريش بذلك ولكنها ركبت رأسها وأبى فرعونها إلا أن يصل إلى ماء بدر ويذبح الجذور ويدق الطبول وتسمع عنه العرب فتظل تهابه إلى أبد الدهر كما كان يقول. والمسلمون مع الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبروا أن العير قد نفدت ولم يكونوا قد خرجوا من أول الأمر لذات الشوكة ولو كان ذلك لأعدوا لها واستعدوا ولكنهم أخبروا بوعد الله فى حديث صدق وبلاغ حق فاستجابوا طائعين واثقين بوعد الله مع قلة عددهم. فليتم اللقاء ولينفذ القضاء ويرى تحقيق الوعد ولو كان المؤمنون قلة ويساق أهل الكفر إلى مصارعهم ولو انتفى السبب الداعى إلى خروجهم.

وتسمع الدنيا كلها عن مصرع فرعون هذه الأمة ومن معه من رؤوس الكفر فتظل تلعنهم إلى أبد الدهر. ويقرأ من يقرأ كتاب الله فيرى مطابقة الحديث للواقع ويشهد نصر الله بين فئتين ليس بينهما تكافؤ. فيغنم القارىء المتدبر بالمعرفة والتبصرة. ويعود بالثقة فى كل ما وعد الله به وأخبر عنه. واليقين بأن ما جاء منه هو الحق فيكون بيان القرآن ـ كما أخبر الله ـ هدى وموعظة للمتقين وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب ويكون انتصار الحق بالحجة والبيان مقترنا بانتصار دلالته فى شئون الخلق بلا تبديل أو تحويل. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

وعندما تقرأ فى كتاب الله إخبارا عن المنافقين:

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

(التوبة: ٤٨)

ترى الحديث قد امتد بنوره فكشف خبايا النفوس وأظهر ما أخفته واجتهدت فى تدبيره. كما ترى حالها عند مجىء الحق وتحقيق النصر وهى سادرة فى غيها مستخفية فى نفاقها. فترى انتصار الحق فى بيانه مقترنا بانتصاره فى كشف كل ما يخالفه فى الواقع. ولا ترى فى إخباره عوجا. بل تراه فيما ينذر ويبشر فى ثقة. ويميز الخلق بأعمالهم دون محاباة أو مجاملة. فلا يبقى فى حياة الناس مجال أو عذر لاتباع ظن أو تخمين ـ وهم يسمعون كلام رب العالمين.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾

(الحاقة: ٤٨ ـ ٥٢)

والحق ـ فى باب الاعتقاد ـ لا يطلب بالظن والتخمين وانما يطلب بالعلم واليقين ولقد ضل من ضل لاتباعهم الظن فيما يعتقدون وخضوعهم لهوى أنفسهم والحق لا يتبع الهوى. والظن لا يغنى من الحق شيئا.

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(يونس: ٣٦)

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾

(النجم: ٢٨)

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾

(النجم: ٢٣)

ان سبيل الحق حجة وبرهان وعلم ويقين. والظن لا يغنى من العلم اليقينى والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع شيئا. ومعرفة المعلوم على ما هو به لا يكون بالتقليد واتباع الهوى وانما يكون بالمعرفة والحجة والبرهان.

والقرآن الكريم يعلم الناس أن يكون البرهان سبيلهم فيما يؤمنون به ويعتقدون:

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

(الأنبياء: ٢٤)

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(المؤمنون: ١١٧)

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(النمل: ٦٤)

واذا فقد البرهان وبطلت الحجة اتبع الظن وما تهوى الانفس وكان المآل هو الباطل والضلال والجزاء هو العذاب والخسران ولا عذر وقد جاءهم من ربهم الهدى.

واذا كان سبيل الحق حجة وبرهان فان انتصاره حتم فى كل جدال أو خصام. ولن يقف أمامه باطل في هذا المجال. ولا ثبات للباطل ولا بقاء اذا جاء الحق أو بدت طلائعه.

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

(الاسراء: ٨١)

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

(الأنبياء: ١٨)

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

(سبأ: ٤٨، ٤٩)

وخذلان الباطل امام حجة الحق وسلطانه أمر لا يخفى وزهاقه وذهابه عند مجيئه فى حجته ونوره ونفعه وجنده. أمر تراه كما ترى ذهاب الظلام عند الضياء وترى تلاشى الزبد وذهابه جفاء عند سيل الماء، وترى تطايره عندما يوقد الناس النار ابتغاء حلية أو متاع فلا ثبات له فى بأس، ولا بقاء له فى شدة وما علق الباطل بشىء إلا وتطاير عند شدة ونكص عند لقاء وذهب جفاء عند تحرك أمواج الحياة. واندثر مواتا عندما يُرمَى بقذائف الحق فلا يبدىء ولا يعيد.

قال الماوردى[1] فى تفسير قوله تعالى ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه**﴾. الآية فيه ثلاثة أقاويل.

احدهـــا: أن الحق الكلام المتبوع. والباطل المدفوع. ومعنى يدفعه أى يذهبه ويهلكه كالمشجوج. تكون دامغة فى ام رأسه تؤدى لهلاكه.
الثانـــى: أن الحق القرآن والباطل إبليس.
الثالـث: أن الحق: المواعظ، والباطل: المعاصى، قاله بعض أهل الخواطر.

ويحتمل رابعا: ـ أن الحق الإسلام والباطل الشرك.
وفى قوله تعالى: ﴿**قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب**﴾ قال فيه تأويلان:

احـدهما: الوحى. قاله قتادة. (الثانى) بالقرآن رواه معمر: وفى قوله «يقذف» ثلاثة أوجه: (أحدها) يتكلم، (الثانى): يوحى (الثالث): يلقى.

﴿**وما يبدئ الباطل وما يعيد**﴾ فيه ثلاثة أوجه (احدها) ان الباطل الشيطان رواه

(١) النكت والعيون: تفسير الماوردى: ابى الحسن على بن حبيب الماوردى البصرى، (٣٦٤ ـ ٤٥٠) هـ، تحقيق خضر محمد خضر، مراجعة الدكتور عبدالستار أبو غده.

معمر. (الثانى) أنه ابليس، رواه خليد. (الثالث) أنه دين الشرك. قاله ابن بحر.

وفى ابداء الباطل واعادته ثلاثة أوجه (أحدها) لا يخلق ولا يبعث. قاله قتادة (الثانى) لا يحيى ولا يميت. قاله الضحاك. (الثالث) لا يثبت اذا بدا ولا يعود إذا زال قاله ابن بحر.

وفى قوله تعالى من سورة الاسراء: ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا**﴾. قال: فيه ثلاثة تأويلات.

احدهـا: أن الحق هو القرآن. والباطل هو الشيطان، قاله قتادة.
الثانى: أن الحق عبادة الله تعالى. والباطل عبادة الأصنام، قاله مقاتل بن سليمان.
الثالث: ان الحق الجهاد والباطل الشرك. قاله ابن جريج.
﴿**إن الباطل كان زهوقا**﴾. أى ذاهبا هالكا.

وانتصـار الحق بالحجة والبيان يقطع السبيل على المعاندين فيدمغ باطلهم ويقمع عنادهم. فاذا أتوا بسؤال أو مقترح يريدون به القدح فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو استنكروا واستبعدوا ما يخبرهم به ويحذرهم منه جاء الجواب الذى يرد باطلهم ويدفعه والحق الذى يدمغه ويزهقه.

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

(الفرقان: ٣٣)

﴿**ولا يأتونـك بمثل**﴾ أى بصفة عجيبة من باطلهم فى قدح أو مقترح. ﴿**إلا جئناك بالحق**﴾. أى الذى يقمع تلك الصفة. كما قال ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾.

﴿**وأحسـن تفسيرا**﴾. أى بيانا وهداية عناية بك وبما أرسلت من أجله، وخذلانا لأعداء الحق وخصوم الرشاد[1].

(١) تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل: للقاسمى.

نعم يأتى الرد عليهم بالحجة القاطعة والحكمة البالغة التى يبهت بها أهل الكفر ويخشع لها أهل اليقين والصدق وتزيدهم إيمانا . وكلما أوردوا شبهة أو أتوا بسؤال أجيبوا بالحق الذى لا تخفى دلالته ولا تنكر هدايته .

فمن مقترحاتهم التى يرونها قادحة فى رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم داعية إلى مخالفته ما حكاه القرآن الكريم عنهم : ﴿**وقالوا لولا أنزل عليه ملك**﴾ . وهو قول يلاحقه القرآن فلا يبقى له أثرا ولا لقائليه ملجأ أو مدخلا .

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

(الأنعام : ٨، ٩)

لقد ظنوا وهم يقترحون أنهم وجدوا المانع لهم من الايمان وظفروا بما يَتَعَلَّلُون به فى المخالفة والانكار. فإذا بالجواب يأتى فلا يبقى لهم مانعا يلوذون به أو مدخلا يأوون إليه بل يأخذهم أخذا فيكشف عن حقيقتهم ويظهر دوافعهم ويريهم ما هم عليه من جهالة وضلال وهم يقترحون أو يسألون :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

(الاسراء : ٩٤، ٩٥)

وما أكثر ما أثاروا من شبه . وما أبدوا من استنكار وأظهروا من عناد :

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي

﴿ صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

(الاسراء: ٤٩ ـ ٥١)

هكذا يجيء الرد على استنكارهم واستبعادهم أن يبعثوا. يجيء فى جملة واحدة **﴿فسيقولون من يعيدنا﴾** ؟ **﴿قل الذى فطركم أول مرة﴾**.

وفى الرد ما فيه من إلزام وايقاظ وتقريع على غفلتهم ونسيانهم:

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾

(مريم: ٦٦، ٦٧)

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾

(يس: ٧٨)

﴿ونسى خلقه﴾ يالها من غفلة وجهالة قادت أصحابها إلى ضرب الأمثال ودروب الباطل والضلال: **﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾**. وقالوا: **﴿أإذا كُنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا﴾**. يقولون ذلك وقد نسوا أنهم لم يكونوا من قبل شيئا مذكورا. الانسان فيه الدليل على ما استنكره أو استبعده وينساه. وَيُذَكّر به فلا يفيق من غفلته ولا ينفك من جهالته يعترف بأن الله خلقه وفى الخلق ما فيه من آيات وبينات ويستنكر أن يبعث أو يعاد. وتأتى الحجة عليه فى نفسه قاطعة مزهقه لباطله **﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾** ؟.

ومن ضربهم الأمثال: قولهم **﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾**. ويأتى الجواب مبطلا لشبهتهم مظهرا للحكمة والرحمة: **﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾**. أى نقويه على القيام بأعباء الرسالة والنهوض لنشر الحق بين قادة الجهالة. فان ما يتواتر إنزاله لذلك أبعث للهمة واثبت للعزيمة وأنهض للدعوة من نزوله مرة واحدة.

﴿ورتلناه ترتيلا﴾. أى فصلناه تفصيلا بديعا لا يلحق شأوه ولا يدرك أمره[1].

(١) محاسن التأويل: للقاسمى.

ولو تتبعنا ما يأتون به من مثل وما يجىء به القرآن لرأينا انتصار القرآن فى جميع الأحوال بالحجة التى لا تقاوم والحكمة التى لا يجهل خيرها ولا يخفى نورها ولرأينا أن الحق المنتصر يقدم مع الحجة عظته وعبرته وهدايته وتبصرته. ويأخذ بيد الإنسان لكى يرفعه من كبوته ويوقظه من غفلته ويخرجه من ظلمته فى رفق ورحمة. فانتصاره بالحجة يقترن بالهداية والتذكرة ويفتح الباب لمن عاداه أن يلوذ إلى رحمته وحماه ولا يقنطه أبدا من رحمة الله. بل يعد بالعفو والمغفرة لمن أسلم وأناب. من قبل أن يأتى الموت أو يقع العذاب:

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

(الزمر: ٥٣ ـ ٥٥)

فآيات الله فى الافاق وفى الانفس وهى تتآخى مع آيات الله المنزلة على نبيه صلى الله عليه وسلم فى مخاطبة الانسان وهدايته إلى الحق تجعل الحجة مرئية مشاهدة لا يقنع بها العقل فحسب بل تشاهدها الحواس وتنعم الحياة وتلين الجلود وتخشع القلوب إلى ذكر الله. فترى الآية للإنسان كله وترى البيان مخاطبة لعقله وطمأنينة لقلبه لا يعزله عن دنياه ولا يلهيه بها عن اخراه. فيتسق البيان مع الفطرة ويجد الانسان هدايته إلى الحق وهو يمشى فى مناكب الأرض ويأكل من الرزق. فلا ترى آية القرآن وحجته بعيدة عن شئون الإنسان وحياته، ولا ترى آية الله فى الآفاق وفى الأنفس تختلف مع آية الوحى فى تبصرة الانسان وتذكرته. بل تتآخى الآيات كلها وتتسق فى مخاطبة الإنسان وهدايته ودعوته إلى الحق فى جميع أمره. وتمتزج آيات الله كلها وتتأخى لتحقيق غاية ما أبرها وأكرمها هى الأخذ بيد الإنسان إلى الحق وهدايته إلى الصراط المستقيم بالحجة والبيان.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الجاثية: ١ - ٦)